السلطان عبد الحميد الأول

فترة الحكم: ١٧٧٤ – ١٧٨٩

السلطان العثماني السابع والعشرون

الألقاب والأسماء الشعرية: الغازي والولي

اسم الأب: السلطان أحمد الثالث

اسم الأم: ربيعة شرمي سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،
٢٠ من مارس/آذار سنة ١٧٢٥

العمر عند اعتلاء العرش: ٤٩ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الكربالشديد ٧ أبريل/نيسان سنة ١٧٨٩

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول،
ودفن في مقبرة تحمل اسمه بالقرب
من "باهجه كابي" بإسطنبول

أبناؤه: مصطفى الرابع، ومحمود الثاني، ومراد،
ونصرت، ومحمد، وأحمد، وسليمان

بناته: أسماء سلطان، وأمينة سلطان، وربيعة سلطان،
وصالحة سلطان، وعليم شاه سلطان، ودورُو شَهْوار سلطان،
وفاطمة سلطان، وملك شاه سلطان، وهبة الله سلطان،
وزكية سلطان

اعتلى السلطان عبد الحميد الأول العرش عام ١٧٧٠ تقريبا. وهذه اللوحة رسمها الفنان العثماني الأرمني رافاييل، وهي موجودة بمتحف قصر "طوب قابي".

اعتلى السلطان عبد الحميد الأول العرش وهو في التاسعة والأربعين من عمره مكان أخيه المتوفى في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من مشكلات كثيرة. ولما كانت الدولة العثمانية في أمس الحاجة لسلطان كفء، فلم يكن من الملائم بالنسبة لكل من الدولة والسلطان أن يكون السلطان على تلك الدرجة من عدم الخبرة في إدارة الحكومة في وقت توليه السلطة.

في البداية كان التحدي الأكبر الذي واجه عبدَ الحميد الأولَ الحربُ الروسية–العثمانية التي اندلعت خلال عهد أخيه مصطفى الثالث وكانت ما تزال مستمرة منذ خمس سنوات. فحاول تحرير والاشيا ومولدافيا من الغزو، حيث اعتقد أن ذلك سوف يساعد على إبرامه معاهدة رابحة مع الروس. غير أن الجيش العثماني هُزم بالقرب من كوزْلوجا وشُومْنو. وبذلك وفي الشهر السادس فقط من توليه العرش، أُجبر السلطان على قبول شروط المعاهدة تماما كما أملاها الروس. وفي ٢١ يوليو/تموز عام ١٧٧٤ وقّع الروس والعثمانيون معاهدة "كوجوك كايْنارْجا"، والتي تعد أجحف معاهدة وافق عليها العثمانيون؛ فقد نصّت على قبول العثمانيين بالاستقلال الاسمي للقرم؛ وبهذا خسر العثمانيون أول منطقة ذات أغلبية مسلمة. وبشكل خاص فَقَدَ العثمانيون منطقة قاباردي، وخصوصا أزوف الأكثر أهمية. كما أقام الروس حماية على المسيحيين الأرثوذكس وهي الحماية التي سوف يستغلونها للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية. ومُنح الروس أيضا حق المرور المجاني عبر المضايق، بالإضافة إلى مزايا تجارية تماثل تلك التي أُعطيت للفرنسيين والبريطانيين في السابق.

حزن العثمانيون، وبخاصة السلطان عبد الحميد الأول، لخسارة القرم، وهي الأرض التي أصبحت بمثابة الوطن الثاني للأتراك بعد ١٥٠٠ سنة من الوجود هناك. وبعد معاهدة كوجوك كاينارجا، أخمد السلطان عدة ثورات في البحر المتوسط وسوريا والمورة ومصر، وكل ذلك بدعم من الأميرال العثماني العام حسن باشا غازي وأحمد باشا الجزار. وقام السلطان أيضا بإنهاء الاضطرابات التي سببتها قوات المشاة البحرية العثمانية في الأناضول. وكانت تلك الفترة هي فترة انتشار المذهب الوهابي بشبه الجزيرة العربية واستيلاء أمير نجد عبد العزيز بن سعود على وسط الجزيرة العربية.

ورغم انفصال منطقة القرم عن الحكم العثماني بناء على بنود معاهدة كوجوك كاينارجا الخاصة باستقلال القرم فإن الروس تحينوا الفرص المناسبة للاستيلاء عليها. وبدا الوقت مناسبا للروس عندما تبيّن أن الاضطرابات في الجزيرة العربية يصعب التعامل معها على نحو سريع. وعندما حاولت الإمبراطورة كاثرين الثانية تنصيب شاهين كِيرايْ خانا جديدا على القرم، لجأ القرميون إلى العثمانيين المرتبطين بهم برابطة الإسلام. وكان السلطان

يعرف تماما أن الروس يبحثون عن طرق لغزو القرم، فأصدر أوامره لإعداد الجيش في حالة غزو الروس للقرم. وبسبب ردود فعل السكان المحليين أراد شاهين كيراي هذه المرة أن يكون سليم كيراي الثالث الخان الجديد. وعندما أصبح الخلاف الدبلوماسي القائم على وشك أن يتحول إلى حرب روسية عثمانية خطيرة، تدخلت فرنسا وتوسطت بين الطرفين المقاتلين، والتقى الطرفان في النهاية بقصر "آينالي قاواق" من أجل اتفاقية "آينالي قاواق" في إسطنبول عام ١٧٧٩. ونصت تلك الاتفاقية على بقاء القرم مستقلة، وعلى انسحاب القوات الروسية من منطقة القرم، وعلى موافقة العثمانيين على تولي شاهين كيراي منصبَ الخان الجديد. وبالإضافة إلى ذلك، مُنحت حقوقٌ وحرياتٌ إضافية للمسيحيين العثمانيين.

عززت اتفاقية "آينالي قاواق" من دور روسيا الوصائي ليس فقط على القرم ولكن على جميع المسيحيين الأرثوذكس في البلقان أيضا. ولأن السلطان عبد الحميد الأول كان ضد الدبلوماسية الروسية في القرم فقد أراد أن يكون أكثر فاعلية في جنوب القوقاز. وعمليا تم تحصين قلعتي سُوغُوجَاك وآنابَا، وأقام علي باشا حاكم قلعة سُوغُوجَاك علاقات مع القبائل الشركسية، وطوّر العثمانيون علاقاتهم مع الداغستانيين. كما راسل السلطان عبد الحميد الأول أبا الغازي سيد محمد بهادر خان، حاكم بخارى، فكتب له هذا الأخير عددا من الرسائل يطلب فيها مساعدته عندما يسير الجيش العثماني إلى روسيا لتحرير القرم.

وفي تلك الأثناء، استخدم الخان القرمي الجديد شاهين كيراي دعم الروس له في تنفيذ إصلاحات أوروبية التوجه؛ فثار القرميون واضطر شاهين كيراي إلى الهروب من القرم. وعندما حدث ذلك هرع المارشال الروسي بوتَمْكِين إلى

مسجد عبد الحميد الأول الذي أنشأه السلطان عبد الحميد الأول في منطقة بيلربَيي على الساحل الآسيوي لإسطنبول.

جزء من الغرفة الخاصة بالسلطان عبد الحميد الأول بقصر "طوب قابي"

القرم وقام بذبح قرابة ثلاثين ألف مسلم في القرم بوحشية، ثم أعاد شاهين كيراي إلى الحكم مرة أخرى. فهجر أغلبُ المسلمين المتبقين القرم، وقام شاهين كيراي بإعادة إسكان المدينة بالمهاجرين الروس. عاد بوتَمْكِين إلى القرم بعد فترة قصيرة لإلحاقها بروسيا هذه المرة وذلك في ٩ يناير/كانون الثاني عام ١٧٨٤. ولم تكن الدولة العثمانية مستعدة لمحاربة روسيا، فتقبلت على مضض غزوَها للقرم.

بعد عدة سنوات خالية من الحروب بين روسيا والنمسا، التقت الدولتان في سان بطرسبرج لمناقشة تقسيم الأراضي العثمانية. ولاحقا حرّض الروس بكوات المماليك الشراكسة على التمرد على السلطة العثمانية. وعند تلك النقطة أرسلت الدولة العثمانية إنذارا لروسيا أولا ثم أعلنت الحرب عليها. وكانت إعادة القرم للحكم العثماني هدفا آخر من أهداف الحرب. واضطر العثمانيون لقتال روسيا على جبهةٍ، وقتالِ النمسا حليفة روسيا على جبهة أخرى. ورغم أن القوات العثمانية انتصرت على النمساويين فإن الجيش الروسي هزم العثمانيين في النهاية. واستمرت صحة السلطان في التدهور خلال الحربين، وتأثر تأثرا شديدا باستيلاء الروس على قلعة أوتشاكوف (أُوزي) على نهر دنيستر، حتى إن هذا الأمر تسبب في إصابته بالشلل. وتوفي السلطان عبد الحميد الأول في نهاية الأمر في الغرفة الخاصة بقصر "طوب قابي" يوم ٧ أبريل/ نيسان عام ١٧٨٩.

تؤكد السجلات التاريخية أن السلطان عبد الحميد الأول كان رجلا رحيما وطيبا ومخلصا. وكان عليه مواجهة مشكلات عديدة داخل دولته وخارجها. وخلال عهده تم تطبيق جملة من الإصلاحات العسكرية التي كان الهدف منها أساسا هو تحديث ورفع كفاءة فيالق المدافع والمدفعية والانكشارية بالإضافة إلى البحرية السلطانية. وعلى صعيد الشؤون الخارجية أقام السلطان عبد الحميد الأول علاقات وثيقة مع الخانية الأوزبكية والولايات الإسلامية في المغرب والهند.

شيد السلطان عبد الحميد الأول مجمع مبانٍ خيري يضم ملجأ ومدرسة أطفال وكلية ومكتبة أبحاث في حي سِركجي بإسطنبول. وتوجد الكتب التي بقيت من عهد عبد الحميد الأول اليوم بمكتبة السليمانية. كما أنشأ السلطان، نيابة عن والدته ربيعة سلطان، مسجدا بالقرب من ساحل بَيْلَرْبَيِي، بالإضافة إلى أسبلة مياه كثيرة في جميع أنحاء إسطنبول، وبخاصة في بَيْلَرْبَيِي وجامليجا في الشطر الأناضولي من المدينة. وكان هو مَن أمر بإقامة الغرفة الخاصة التي سميت باسمه بعد ذلك، وكذلك المساكن السلطانية (المابين).[٢٨]

تولى السلطان إصلاحات بئر زمزم ومجاري المياه بمكة، كما أجريت في عهده عملية صيانة

(٢٨) المابيـــن: هو القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الحرم (أي جناح الحريم) وما بين الدوائر الخارجية. وهو المكان الذي يقضي فيه السلطان يومه، إن لم يكن يخرج من القصر. والأمور التي يتم عرضها عليه من لدن الصدر الأعظم ترفع إلى هذه الدائرة، فيطلع عليها السلطان، ويأمر بما يراه مناسباً.

مرسوم صادر عن السلطان عبد الحميد الأول بتجديد تعيين السيدة حنيفة، أم أحمد سعيد، وصية شرفية في ضريح الرسول ﷺ.

منظر جوي لقصر "طوب قابي"

شاملة لمقامَي إبراهيم ﷺ والإمام الشافعي، وأعيد بناء البرجين حول مكة بعد تآكلهما بفعل الزمن. ولِما أن السلطان عبد الحميد الأول كان نصيرا كريما للعلم والمعرفة فقد أمر بافتتاح مكتبة بالمدينة، وشحن من إسطنبول ١٦٦٩ مخطوطة ليتم استخدامها في المكتبة التي افتتحت حديثا بالمدينة. وأمر ببناء قلعة أجياد (التي ظلت قائمة حتى عام ٢٠٠١) على تلّة تطل على المسجد الحرام لحمايته من الغزاة.

منظر عام لقصر "طوب قابي" على رأس أو لسان صخري في البحر يُسمى "سراي بورنو" (قصر اللسان)، ممتدا من القرن الذهبي وحتى مضيق البوسفور وبحر مرمرة، ويمكن منه مشاهدة إسطنبول.